تفسير سورةُ الشعراء
من آية (192) إلى آية (209)
اللقاء الحادي عشر

المعنى الإجمالي من آية (176) إلى آية (191):

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ شُعَيبٍ عليه السلامُ، وهي آخرُ القصصِ المذكورةِ في هذه السورةِ، فيقولُ: كذَّب أصحابُ الشَّجَرِ الملتَفِّ المرسَلينَ، حينَ قال لهم رَسولُهم شُعَيبٌ: ألَا تتَّقونَ الله، وتَحذَرونَ سَخَطَه؟! إنِّي لكم رسولٌ مِن الله، أمينٌ على وحيِه، فأبلِّغُكم به بلا زيادةٍ ولا نقصٍ، فاتَّقوا عِقابَ الله وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم ثوابًا ولا جَزاءً، ما ثوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى أنَّ نبيَّه شعيبًا عليه السلامُ نَهَى قومَه عن أبرزِ الرذائلِ المتفشِّيةِ فيهم، وأنَّه قال لهم: أَتِمُّوا -أيُّها النَّاسُ- الحَقَّ كاملًا عندَ الكَيلِ، ولا تكونوا ممَّن يَنقُصُ النَّاسَ حُقوقَهم، وَزِنوا للنَّاسِ بالميزانِ العادِلِ المستقيمِ الذي لا انحرافَ فيه، ولا تَنقُصوا النَّاسَ شَيئًا مِن حُقوقِهم، ولا تُفسِدوا في الأرضِ، واتَّقوا اللهَ الذي خلَقَكم أنتم والخَلقَ الأوَّلينَ مِن قَبْلِكم.

قال قومُ شُعَيبٍ له: إنَّما أنت مِن المسحورينَ، فتَهذِي بما لا معنى له، وما أنت إلَّا بشَرٌ مِثلُنا، وإنَّا لَنظُنُّك مِن الكاذبينَ في زَعمِك أنَّك مُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ، فأنزِلْ علينا قِطَعًا مِن السَّماءِ تُهلِكُنا إن كنتَ صادِقًا فيما تقولُ!

قال شُعَيبٌ لهم: ربِّي أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِن الشِّركِ والمعاصي، وهو مُجازيكم عليها، ومُعَذِّبُكم بها إنْ شاء.

فكذَّب قَومُ شُعَيبٍ نبيَّهم، فأخَذَهم اللهُ بعذابٍ أظَلَّهم فهَلَكوا مِن تحتِه، إنَّ ذلك العذابَ كان عذابَ يومٍ شَديدِ الأهوالِ.

إنَّ في إهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ شُعَيبٍ، وعِبرةً وعِظةً لِمن يعتبِرُ، وما كان أكثَرُ قَومِ شُعَيبٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿192﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا ختمَ سُبحانَه ما اقتصَّه مِن خبرِ الأنبياءِ؛ ذَكَرَ بعدَ ذلك ما يدُلُّ على نبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: وإنَّ القرآنَ وحْيٌ مِن اللهِ الذي ربَّى جميعَ العالَمينَ بنِعَمِه، وهداهم لمصالِحِهم برَحمتِه. موسوعة التفسير

هذه الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ إشارةٌ إلى أنَّه مِن مُقتضى ربوبيَّتِه أنْ يكونَ مُنَزِّلًا لعبادِه هذا الكتابَ المفيدَ لهم.

عَوْدٌ إلى ما افتُتِحَتْ به السورةُ مِنَ التَّنويهِ بالقرآنِ، وكَوْنِه الآيةَ العُظمى بما اقتضاهُ قولُه: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [الشعراء: 2] ؛ لتُختَتَمَ السورةُ بإطنابِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، كما ابتُدِئَتْ بإجمالِ التَّنويهِ به، والتنبيهِ على أنَّه أعظَمُ آيةٍ اختارها اللهُ أنْ تكونَ معجزةَ أفضلِ المرسَلينَ؛ فضميرُ وَإِنَّهُ عائدٌ إلى معلومٍ مِنَ المقامِ –وهو القرآنُ– بعْدَ ذِكْرِ آياتِ الرسلِ الأوَّلينَ، أي: إنَّه ليس بكهانةٍ ولا سِحرٍ، بلْ هو مِن عِندِ اللهِ، وكأنَّه عاد أيضًا إلى ما افتتَحَ به السورةَ مِن إعراضِ المشركينَ عمَّا يأتيهم مِنَ الذِّكْرِ؛ ليتناسبَ المفتتَحُ والمختتَمُ. الدرر السنية

كما قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الواقعة: 77 – 80].

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿193﴾

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) أي: نزَل بالقُرآنِ جِبريلُ المؤتَمَنُ على وَحيِ اللهِ إلى أنبيائِه؛ فهو لا يَزيدُ فيه ولا يَنقُصُ منه شيئًا. موسوعة التفسير

تقريرٌ لحقِّيَّةِ تلك القصصِ، وتنبيهٌ على إعجازِ القرآنِ، ونُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ الإخبارَ عنها مِمَّنْ لم يتعلَّمْها لا يكونُ إلَّا وَحْيًا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [التكوير: 19 – 21].

﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿194﴾

(عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) أي: نزَل جبريلُ بالقُرآنِ على قَلبِك –يا محمَّدُ– لِتَعِيَهُ وتحفَظَه، فتكونَ مِمَّن يُنذِرُ النَّاسَ به. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: في قَولِه تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ سؤالٌ: إنْ قيل: قال: عَلَى قَلْبِكَ، وهو إنما نَزَلَ عليه؟! الجوابُ: أنَّه خصَّه بالذِّكرِ؛ لِيُؤَكِّدَ أنَّ ذلك المنَزَّلَ محفوظٌ، والمرسَلَ متمكِّنٌ مِن قلْبِه لا يجوزُ عليه التغيرُ، ولأنَّ القلبَ هو المخاطَبُ في الحقيقةِ؛ لأنَّه موضعُ التمييزِ والاختيارِ، وأمَّا سائرُ الأعضاءِ فمُسَخَّرةٌ له، ويدُلُّ على ذلك الكِتابُ والسُّنةُ؛ فمِن الكتابِ قولُه تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى

قَلْبِكَ، واستحقاقُ الجزاءِ ليس إلَّا على ما في القَلبِ؛ قال الله تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ [البقرة: 225] .

ومِن السُّنةِ قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أَلَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صلَحَت صلَحَ الجَسدُ كُلُّه، وإذا فسَدَت فسَدَ الجسَدُ كُلُّه، أَلَا وهي القَلبُ))، ولأنَّ القَلبَ مَحَلُّ العَقلِ والفَهمِ، كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا [الحج: 46].

قولُه تعالى: الرُّوحُ الْأَمِينُ هو جبريلُ عليه الصلاةُ والسلامُ، وقد وُصِفَ بالرُّوحِ؛ لأنَّه يَنْزِلُ بما فيه الحياةُ؛ وهو الوحيُ الذي به حياةُ القلوبِ.

قال الله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ في قَولِه: الْأَمِينُ إشارةٌ إلى كَونِه معصومًا مِن كلِّ دَنَسٍ، فلا يُمكِنُ منه خيانةٌ. ووُصِفَ جبريلُ بالأمانةِ؛ لأنَّ المقامَ يقتضيه، وأمانةُ جبريلَ عليه الصلاةُ والسلامُ مِن عِدَّةِ أوجهٍ بالنسبةِ للقرآنِ:

أولًا: أمينٌ؛ بحيثُ لا يَنْزِلُ به إلَّا على مَن أُمِرَ به، وعلى هذا فيكونُ قولُ الرافضةِ -قَبَّحَهم اللهُ-: «إنْ جبريلَ أُمِر أن يَنزِلَ بالقرآنِ على عليٍّ؛ ولكنَّه خانَ فنَزَلَ به على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ» منافيًا لوصفِ جبريلَ عليه السلامُ بالأمانةِ!

ثانيًا: مقتضَى الأمانةِ أنْ يَنزِلَ به كما سَمِعه مِن اللهِ؛ لا يَزيدُ فيه ولا يَنقُصُ، ولا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ.

ثالثًا: أنْ يَنزِلَ به في الوقتِ الذي أُمِر بإنزالِه فيه؛ فلا يتأخَّرُ إذا أُوحيَ إليه به إلَّا بإذنِ اللهِ.

⇦فهذه الأوصافُ الثلاثةُ مِن مقتضَى أمانةِ جبريلَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ

كما قال تعالى: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [البقرة: 97].

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ﴿195﴾

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) أي: بلُغةٍ عَربيَّةٍ واضحةِ المعاني. موسوعة التفسير

قال السعدي: تأمَّلْ كيف اجتمعَتْ هذه الفضائلُ الفاخرةُ في هذا الكتابِ الكريمِ؛ فإنَّه أفضَلُ الكتُبِ، نَزَلَ به أفضلُ الملائكةِ، على أفضَلِ الخلْقِ، على أفضَلِ بَضْعةٍ فيه -وهي قلبُه-، على أفضلِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ، بأفضلِ الألسنةِ وأفصحِها وأوسَعِها، وهو اللسانُ العربيُّ المبينُ.

فلُغةُ العَرَبِ أفصَحُ اللُّغاتِ وأوسَعُها لاحتمالِ المعاني الدَّقيقةِ الشَّريفةِ مع الاختِصارِ؛ فإنَّ ما في أساليبِ نَظمِ كَلامِ العَرَبِ مِن علاماتِ الإعرابِ، والتَّقديمِ والتأخيرِ، والكنايةِ وغيرِ ذلك، وما في سَعةِ اللُّغةِ مِن الترادُفِ، وأسماءِ المعاني المقَيَّدةِ، وما فيها من المحَسِّنات- ما يَلِجُ بالمعاني إلى العُقولِ سَهلةً مُتمَكِّنةً، فقدَّر اللهُ تعالى هذه اللُّغةَ أن تكونَ هي لُغةَ كتابِه الذي خاطبَ به النَّاسَ كافَّةً. ومِن الدعواتِ المستنكَرةِ في عَصرِنا الحاضرِ دعواتُ مَن يريدون أنْ يُذِيبوا اللغةَ العربيَّةَ، مطالبينَ بجَعْلِ اللُّغةِ العاميَّةِ مكانَ اللُّغةِ العربيةِ

في المكاتباتِ والمراسلاتِ وغيرِها! وأقبَحُ مِن ذلك مَن يحاولون أنْ يَتكلَّموا باللُّغةِ الأعجميَّةِ في أكثرِ محادثاتِهم، ويَفتخرونَ بلغةِ الإنجليزِ وغيرِهم، وتجدُهم يَتَشَدَّقون بالكلامِ بها. الدرر السنية

كما قال تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [النحل: 103].

وقال تبارك وتعالى: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [فصلت: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ [الشورى: 7].

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿196﴾

(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) أي: وإنَّ هذا القُرآنَ مَذكورٌ خبَرُه في كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ المبشِّرةِ به، ممَّا يدُلُّ على صِحَّتِه. موسوعة التفسير

❁أي: كتُبِ، جمعُ زَبورٍ، وهو: كلُّ كتابٍ ذي حِكمةٍ، مأخوذٌ مِن الزَّبْرِ، وهو الكِتابةُ والقِراءةُ.

قال ابن عثيمين: دليلٌ واضحٌ على عنايةِ اللهِ تعالى بهذا القُرآنِ وتشريفِه وتعظيمِه؛ حيثُ ذُكِرَ في كلِّ كتابٍ سَبَق.

وقال رحمه الله: دليلٌ على أنَّه لو جاء هذا الكتابُ لوَجَبَ على جميعِ مَن يَدِينون بالكتبِ السابِقةِ أنْ يؤمِنوا به.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿197﴾

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أي: أوَلَمْ يكُنْ للمُشرِكين المكَذِّبين دَلالةً على صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ مِن الوَحيِ؛ أنَّ العُلَماءَ مِن بني إسرائيلَ يَعلَمونَ صِدقَ ذلك، ويَجِدونَ ذِكرَه في كُتُبِهم التي يَدرُسونَها. موسوعة التفسير

قال ابن تيميَّة: (علماءُ بني إسرائيلَ يَعلمونَ ذِكرَ إرسالِ محمَّدٍ ونزولَ الوحْيِ عليه... ويعلمونَ المعانيَ التي فيه أنَّها موافِقةٌ لأقوالِ الرُّسلِ قبْلَه في الخبرِ والأمرِ؛ فإنَّه أخبَرَ عن توحيدِ اللهِ وصفاتِه، وعرشِه وملائكتِه، وخَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وغيرِ ذلك بمِثلِ ما أخبَرَتْ به الرُّسلُ قبْلَه، وأمَرَ بتوحيدِ اللهِ وعبادتِه وحْدَه لا شريكَ له، وبالعَدلِ والصِّدقِ والصَّلاةِ والزَّكاةِ، ونهى عن الشِّركِ والظُّلْمِ والفواحِشِ، كما أمرت ونهَت الرسُلُ قبْلَه).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ [الأنعام: 114].

وقال جلَّ وعزَّ: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الأحقاف: 10].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿198﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: لَمَّا فَرَغَ مِن الاستِدلالِ بتعجيزِهم؛ فضَحَ نيَّاتِهم بأنَّهم لا يُؤمِنون به في كلِّ حالٍ

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) أي: ولو نزَّلْنا القُرآنَ على رجُلٍ مِن الأعاجِمِ لا يُحسِنُ التحَدُّثَ بالعربيَّةِ. موسوعة التفسير

وقال ابنُ جُزَي: (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ... جمعُ أعجمَ، وهو الذي لا يتكلَّمُ، سواءٌ كان إنسانًا أو بهيمةً أو جمادًا... ومعنى الآيةِ: أنَّ القرآنَ لو نزَل على مَن لا يتكلَّمُ، ثمَّ قرأه عليهم لا يُؤمنوا؛ لإفراطِ عنادِهم، ففي ذلك تسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على كفرِهم به مع وضوحِ برهانِه).

كما قال تعالى: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ [فصلت: 44].

﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿199﴾

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) أي: فقرأ القُرآنَ على كُفَّارِ العَرَبِ بغيرِ لُغةِ العربِ، لَما آمَنوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ، ولَقالوا: لا نَفْقَهُ قولَك. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: (المعنى أنَّه لو نزَّل اللهُ هذا القرآنَ على بعضِ الأعجَمينَ إنْ كان بلُغتِهم فإنَّهم لن يُؤمِنوا به؛ لأنَّهم لم يفهَموه، وهو بلُغةِ العَجَمِ، وإن كان باللغةِ العربيَّةِ ما آمنوا أيضًا؛ أنَفةً مِن أن يتَّبِعوا رجُلًا أعجميًّا).

قال ابن عاشور: أظهَرَ اللهُ بُهتانَهم في هذه الآيةِ بأنَّهم إنَّما قالوا ذلك حيثُ جاءهم بالقرآنِ رسولٌ عربيٌّ، وأنَّه لو جاءهم بهذا القرآنِ رسولٌ أعجميٌّ لا يَعرِفُ العربيَّةَ بأنْ أوحى اللهُ بهذه الألفاظِ إلى رسولٍ لا يفهمُها، ولا يُحسِنُ تأليفَها، فقرأَهُ عليهم، وفي قراءتِه وهو لا يُحسِنُ اللُّغةَ أيضًا خارِقُ عادةٍ؛ لو كان ذلك لَمَا آمَنوا بأنَّه رسولٌ، مع أنَّ ذلك خارِقٌ للعادةِ -وذلك على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآيةِ-؛ فزيادةُ قولِه: عَلَيْهِمْ زيادةُ بيانٍ في خَرْقِ العادةِ، يعني: أنَّ المشركينَ لا يُريدونَ ممَّا يُلْقُونَه مِنَ المطاعِنِ البحثَ عن الحقِّ، ولكنَّهم أصَرُّوا على التكذيبِ، وطَفِقوا يتحمَّلونَ أعذارًا لتكذيبِهم؛ جُحودًا للحقِّ، وتستُّرًا مِنَ اللائِمينَ.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿200﴾

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) أي: كذلك أدخَلْنا القُرآنَ في قُلوبِ المشرِكين فكَذَّبوا به. موسوعة التفسير

قيل: لِتَقومَ عليهم بذلك حُجَّةُ الله، فدخَل في قلوبِهم وعَلِموا أنَّه حَقٌّ، وكَذَّبوا به، فلمْ يدخُلْ في قلوبِهم دُخولَ مُصَدَّقٍ به مؤمَنٍ به مَرضيٍّ به، وتكذيبُهم به بعدَ دخولِه في قلوبِهم أعظَمُ كُفرًا مِن تكذيبِهم به قبْلَ أن يدخُلَ في قلوبِهم؛ فإنَّ المكَذِّبَ بالحقِّ بعدَ معرفتِه له شَرٌّ مِن المكَذِّبِ به ولم يعرِفْه.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿201﴾

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) أي: لا يُؤمِنونَ بالقُرآنِ حتى يَرَوا عذابَ اللهِ فيُؤمِنوا به حينَ لا ينفَعُهم الإيمانُ. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (هؤلاء الكُفَّارُ الذين ذكَرَ الله جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمة أنَّهم لا يؤمنون حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ، هُمُ الذين حَقَّتْ عليهم كَلِمةُ العذابِ، وسبَقَ في عِلمِ الله أنَّهم أشْقياءُ).

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: 96، 97].

﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿202﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان إتيانُ الشَّرِّ فُجاءةً أشَدَّ، وكان أخْذُه لهم عَقِبَ رؤيتِهم له مِن غيرِ مُهلةٍ يحصلُ فيها نوعُ استعدادٍ أصلًا- دلَّ على ذلك مصَوِّرًا لحالِه بقولِه، دالًّا بالفاءِ على الأشَدِّيةِ والتَّعقيبِ

(فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أي: فيأتيَ المكَذِّبينَ بالقُرآنِ عَذابُ اللهِ فَجأةً بلا مُقَدِّماتٍ، وهم لا يَشعُرونَ بمَجيئِه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (قولُه: فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً صالحٌ للعذابينِ: عذابُ الآخرةِ يأتي عَقِبَ الموت، والموتُ يحصُلُ بغتةً، وعذابُ الدنيا بالسَّيفِ يحصُلُ بغتةً حينَ الضَّربِ بالسَّيفِ).

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ﴿203﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا بَيَّنَ أنَّهم لا يُؤمِنون به حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ، وأنَّه يأتيهم العذابُ بغتةً؛ أتبعَه بما يكونُ منهم عندَ ذلك على وجهِ الحَسرةِ، فقال

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) أي: فيأتيَ المكَذِّبينَ بالقُرآنِ عَذابُ اللهِ فَجأةً بلا مُقَدِّماتٍ، وهم لا يَشعُرونَ بمَجيئِه. موسوعة التفسير

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ﴿203﴾

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) أي: فيقولَ المجرِمونَ حينَ يأتيهم العَذابُ فَجأةً: هل نحن مؤخَّرون ومُمهَلُون لِنَتوبَ إلى اللهِ، فنُؤمِنَ ونعمَلَ صالِحًا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ [إبراهيم: 44].

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿204﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الشربيني: وأيضًا لَمَّا أوعدَهم النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالعذابِ، قالوا: إلى متى تُوعِدُنا بالعَذابِ؟ ومتى هذا العذابُ؟ قال اللهُ تعالى

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) أي: أيَستعجِلُ هؤلاء المجرِمونَ بعَذابِنا الذي لا يَنْبغي أن يُستهانَ به. موسوعة التفسير

وَإِنَّ مِن سُنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلقِهِ أَن يُنذِرَهُم بِالآيَاتِ وَيَبتَلِيَهُم بِالمصَائِبِ، فَإِنْ هُمُ انتَبَهُوا وأنابوا، تَجَاوَزَ عَنهُم وَعَفَا، وَإِنْ هُم عاندوا وَأَصَرُّوا، فَعَلَ بهم مَا فَعَلَ بمن قَبلَهُم مِنَ العُصَاةِ المعَانِدِينَ، حيث يملي لهم، ويمدهم في طغيانهم يعمهون، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

لَقَد فَزِعَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى خسوف القمر فزعًا شديدًا، وَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ، بَل وَرَدَ أَنَّهُ مِن عَجَلَتِهِ لَبِسَ دِرعًا لِإِحدَى نِسَائِهِ، هَذَا وَهُوَ يَعلَمُ يَقِينًا أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلا قَد جَعَلَهُ أَمَنَةً لأُمَّتِهِ، وَأَنَّ العذاب لن ينزلَ وَهُوَ حَيٌّ؛ قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ فَزِعًا إِلى الصَّلاةِ، وَأَمَرَ بِالتَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ.

ومن يرى حَالُ الأُمَّةِ اليَومَ يرى حَالًا لا تَسُرُّ، جرأةٌ عجيبةٌ على المعاصي، واستخفاف بالمنكرات، يُخَوِّفُهُم رَبُّهُم فَلا يزدادُ بَعضُهُم إِلاَّ استخفافًا وَعِنَادًا، وفي الحديث: "كلُّ أُمتي مُعافى إلا المجاهرين"، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤمِنُ بِيَومِ الحِسَابِ، ونَعُوذُ بِاللهِ مِمَّن لم يَقدُرِ اللهَ حَقَّ قَدرِهِ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِمَّن ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [الجاثية: 8]، ونعوذ بالله ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، يَخرُجُ مِن مَعصِيَةٍ إِلى أَكبرَ مِنهَا، وَيَنتَقِلُ مِن دَاهِيَةٍ إِلى ما هو أَدهَى منها: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 60].

كما قال تعالى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [العنكبوت: 53].

وقال سُبحانَه: وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ [ص: 16].

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿205﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: مَّا كان استعجالُهم بالعذابِ مُقتَضيًا أنَّهم في مُهلةٍ منه ومُتعةٍ بالسَّلامةِ، وأنَّ ذلك يَغُرُّهم بأنَّهم في مَنجاةٍ مِن الوعيدِ الذي جاءَهم على لسانِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ جابههم بجُملةِ

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) أي: هَبْ أنَّ الأمرَ كما يعتَقِدونَ مِن طُولِ عَيشِهم، فأخبِرْني إنْ أمهَلْناهم وأبقَيناهم يتمتَّعونَ في الدُّنيا سِنينَ كَثيرةً. موسوعة التفسير

قال ابن رجب: ما مضى مِن العُمُرِ وإنْ طالتْ أوقاتُه فقد ذهبتْ لَذَّاتُه، وبقيتْ تَبِعاتُه، وكأنَّه لم يكُنْ إذا جاء الموتُ وميقاتُه؛ قال الله عزَّ وجلَّ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا

أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ. تلا بعضُ السَّلَفِ هذه الآيةَ وبكى، وقال: (إذا جاء الموتُ لم يُغْنِ عن المرءِ ما كان فيه مِن اللذَّةِ والنَّعيمِ)

﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿206﴾

(ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) أي: ثمَّ جاءهم بعْدَ تلك السِّنينَ الكثيرةِ عذابُ الله الذي كانوا يوعَدُون به على كُفرِهم وتَكذيبِهم. موسوعة التفسير

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ﴿207﴾

(مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) أي: فماذا ينفَعُهم حينَها تمتُّعُهم في الدُّنيا، وتأخيرُنا عذابَهم سِنينَ كَثيرةً. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ مِن اللذَّاتِ والشَّهَواتِ، أيْ: أيُّ شيءٍ يُغني عنهم ويُفيدُهم، وقد مضَت وبطَلَت واضْمَحَلَّتْ، وأعقَبَت تَبِعاتِها، وضُوعِفَ لهم العذابُ عندَ طولِ المدَّةِ؟! القصدُ أنَّ الحذَرَ مِن وُقوعِ العذابِ واستحقاقِهم له، وأمَّا تعجيلُه وتأخيرُه فلا أهميَّةَ تحتَه، ولا جَدْوَى عندَه).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بأنعَمِ أهلِ الدُّنيا مِن أهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ، فيُصبَغُ في النَّارِ صَبغةً، ثمَّ يُقالُ: يا ابنَ آدَمَ، هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ويُؤتَى بأشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا في الدُّنيا مِن أهلِ الجنَّةِ، فيُصبَغُ صَبغةً في الجنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابنَ آدَمَ، هل رأيتَ بؤسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قطُّ)) رواه مسلم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿208﴾

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ) أي: وما أهلَكْنا قريةً مِن القُرى الماضيةِ إلَّا بعْدَ قيامِ الحُجَّةِ على أهلِها بإرسالِ رسُلٍ يُنذِرونَهم سَخَطَ اللهِ وعَذابَه إنِ استمَرُّوا على كُفرِهم. موسوعة التفسير

قال ابن تيمية: دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ أحدًا ولا يُهلِكُه إلَّا بذَنْبِه، وبعْدَ إرسالِ الرَّسولِ إليه كما قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: 15].

وقال سُبحانَه: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [القصص: 59].

﴿ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿209﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: لمَّا بيَّن أنَّ أولئك المشركينَ المستهزئينَ لا يُؤمِنونَ بالكتابِ ولا بالرَّسولِ حتَّى يرَوُا العذابَ الأليمَ حينَ لا تَنفعُهم الآياتُ؛ أتَى بهذه الآيةِ بَيانًا لِاستحقاقِهم العذابَ والاستئصالَ، وأنْ يُجْعَلوا نَكالًا وعِبرةً لغيرِهم، كما جَرَت سُنَّةُ اللهِ تعالى في الأممِ السَّالفةِ، والقرونِ الخاليةِ

(ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) أي: بعَثْنا الرُّسُلَ المنذِرينَ تذكرةً لأهلِ القُرى، وتنبيهًا لهم قبْلَ إهلاكِهم، وما كنَّا ظالِمين لهم بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وإنذارِهم، والإعذارِ إليهم. موسوعة التفسير

قال سُبحانَه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [يونس: 44].

لو نظرنا في أنفسنا، وتأملنا في أحوالنا؛ لوجدنا -إلا من رحم الله منا- أننا غرقنا في دنيانا، وتبعنا شهواتنا وملذاتنا، وغرتنا زخارف الدنيا، وبهارجها، فصارت أعمالنا للدنيا، وتفكيرنا في الدنيا، وذهابنا وإيابنا وغدونا ورواحنا، هو من أجل الدنيا، وصارت الدنيا هي الأصل عندنا، والآخرة هي الفرع.

ألهتنا الدنيا عن أداء صلواتنا، وحالت بيننا وبين القيام بعباداتنا، وأوقعتنا في ارتكاب المحارم، وفعل الفواحش، وأكل الحرام، طمعاً في متاعها الزائل، وغرورها الذاهب، يقول الله -تبارك وتعالى- محذراً لنا من غرورها، وداعياً إيانا إلى الانتباه من الوقوع في مفاتنها وشباكها: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) [فاطر: 5].

ماذا لو علمنا أنه لم يبقى من أعمارنا شيئاً؟ وماذا لو داهمنا الموت بغتة، فبتنا الليلة في قبورنا؟

وماذا لو انتقلنا في لحظة واحدة من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، ومن هذه الحياة إلى حياة القبر والبرزخ؟ ماذا سنقول لربنا عن تفريطنا وتقصيرنا؟ وكيف سنقابل الله ونحن ملوثون وملطخون بمعاصينا وآثامنا؟ وكيف سنعتذر في يوم لا ينفع فيه الاعتذار ولا تجدي فيه الحسرات ولا تنفع فيه الأنَّات والآهات؟

دخل يزيد الرقاشي الزاهد الواعظ على عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين -رحمه الله- فقال له عمر: "عِظْنِي يا يزيد؟ قال: اعلم يا أمير المؤمنين، ما أنت أول خليفة تموت، فبكى عمر، ثم قال: "زدني يا يزيد؟" قال: يا أمير المؤمنين، ليس بينك وبين آدم إلا أبٌ مَيِّت، فبكى عمر، وقال: "زدني يا يزيد؟" قال: يا أمير المؤمنين، ليس بين الجنة والنار منزلة، فسقط عمر مغشيًا عليه -رحمه الله-.

ويحكى أن ميمون بن مهران لقي الحسن البصري، المعروف بزهده وورعه، فقال له ميمون: "قد كنت أحب لقاءك فعظني؟ فقرأ عليه الحسن البصري -رحمه الله- قول الله -سبحانه وتعالى-: (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) [الشعراء: 205-207].

فقال: عليك السلام أبا سعيد، لقد وعظت فأحسنت الموعظة".

علينا جميعاً: أن نحاسب أنفسنا قبل الحساب، وأن نتوب إلى الله من ذنوبنا، ونستغفره منها، قبل غلق الباب، وأن نصحح وضعنا، ونؤدي فرائضنا، ونقوم بواجباتنا قبل أن نتمنى أن نفعل ذلك فيقال لنا: هيهات هيهات.

ويا بن آدم، عِش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمَل ما شئت فإنك مَجزي به، البر لا يبلى والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، وكما تدين تدان.